الديمقراطية الفلسطينية في الممارسة

فيصل حوراني

يدور الحوار حول المفاهيم المتعددة المتصلة بالديمقراطية. ويتناول من هذه المفاهيم ما يُطرح بهدف اغناء المفهوم العام الذي بلورته تجربة البشرية في انتقالها المطّرد من النظم الاستبدادية الى النظم الديمقراطية وتسهيل هذا الانتقال. كما يتناول المفاهيم التي تنطلق من نفي وجود مفهوم عام، وتتشبث بمقولة المفهوم الخاص، وتنسب الخصوصية الى هذا أو ذاك من الاسباب، ويكون الهدف، غالباً، هو مقاومة الوصول الى ممارسة الديمقراطية بمفهومها العصري أو تسويغ سلوك النظم المستبدّة التي تتوخّى شتّى الذرائع لتسويغ استبدادها.

أيّاً كان مآل الجدل على الساحة العربية حول العام والخاص، ومقدار الحاجة لأخذ الخاص بعين الاعتبار، ومع الميل للأخذ بأن تأثير الخاص لا يمكن نفيه، بل يمكن، وينبغي، التعاطي معه بما يدفع باتجاه التوصل الى العام في نهاية المطاف، فإن تناول الممارسة الديمقراطية الفلسطينية، كما تمثلها تجربة منظمة التحرير الفلسطينية، تضعنا ازاء خصوصيات تكاد تكون فريدة، أو لنقل: ان تجربة م.ت.ف. تتأثّر بعوامل لا تقع عليها الّا في الحالة الفلسطينية وحدها، فتستتبع ممارسات ملائمة لها، دون ان ينفي ذلك ان الاسس العامة للديمقراطية تظل هي ذاتها في الاحوال كلها.

ولكي لا يحدث أي اختلاط بين تناولنا لجدل العام والخاص في الساحة العربية وبين ماهو خاص، أو فريد، في الساحة الفلسطينية منها، فمن الجائز القول بأن ما هو خاص من مكوّنات التجربة الفلسطينية، نابع من وضع م.ت.ف. وشروط نشأتها وتأثير هذا الوضع وهذه الشروط على وجود المنظمة وأوجه نشاطها المتعددة خلال سنوات عمرها الثماني والعشرين، وليس نابعاً ممّا يشير اليه دعاة التخصيص من عوامل دينية أو قومية يظنون انها تخص العرب أو المسلمين وحدهم. بكلمات أوجز: ان ما هو خاص في التجربة الفلسطينية ناجم عمّا هو خاص في وضع الشعب الفلسطيني، ممّا لا يشاركه فيه أي شعب آخر.

نظرة على التجربة في عهد الانتداب البريطاني

اذا كان الجميع مطلعاً، بصورة أو بأخرى، على الظروف التي نشأت فيها المسألة الفلسطينية وتطوّرت في ظلها، فقد يكفي مجرّد التذكير بأن الشعب الفلسطيني واجه، في العقد الثاني من قرننا العشرين، المصير الذي واجهته البلدان العربية المشرقية حين تعاونت مع معسكر الحلفاء في الحرب العالمية الاولى وثارت ضد الاستبداد والاضطهاد القومي العثماني لتجد نفسها فريسة للاحتلال الاجنبي: البريطاني أو الفرنسي، وضحية مطامع المحتلين الاستعمارية. الّا ان فلسطين، التي خضعت كغيرها من البلاد العربية للاستعمار، واجهت الى جانب ذلك، وفي ظلّه، بليّة أخرى تمثّلت